

**الحوار والشراكة بين الحضارات**

تأليف

**يوري باكوفتس وسهيل فرح**

قراءة

**عميد كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية**

**الدكتور كميل حبيب**

**المركز الثقافي الروسي**

11 تشرين الثاني 2014

من اجل السلام والامن الدوليين القائمين على مبادىء العدالة والمساواة، خطّ يوري باكوفتس وسهيل فرح كتابهما الموسوعي، والذي جاء تحت عنوان: "**الحوار والشراكة بين الحضارات**"، مع تقديم علمي مقتضب من معالي وزير خارجية روسيا الاتحادية السيد سيرغي لافروف.

إنه كتاب نادر في سلالته التي بدأت مع بداية العقد الاخير من القرن الماضي حينما بدأ الحديث عن "**صدام الحضارات**"، و "**نهاية التاريخ**"، وانتصار الليبرالية الفجة التي تحاول الاطاحة بكل القيم الاخلاقية والانسانية والقوانين والاعراف الدولية من اجل السيطرة والتلقين والاستتباع. إنه "النظام العالمي الجديد" الذي يعبر عن طموح نحو ايجاد نظام سياسيي عالمي تهيّمن فيه او تفرض فيه قوة وحيدة او تحالف قوي هيمنة سياسية واقتصادية وثقافية انطلاقاً من مصالحها المادية ونظرتها الفلسفية على اكبر قدر ممكن من دول وشعوب العالم.

انها طبيعة العلاقات بين الدول التي تغلب المصالح على كل ما عداها من افاهيم عالمية تعترف بالتبادل والادوار والانفتاح والحوار. انه الصراع المتجدد بين النظام العالمي والعالمية التي تعطي الاولوية للتحديات المشتركة التي تواجه البشرية، وتدعيم مجالات التعاون والحوار الدولي، والقبول بمبدأ التعدد والاختلاف واحترام اختيارات الشعوب.

أضف الى كل ذلك ان قانون السوق لا ينتج انتظاماً وشفافية كما يشاع، و"**اليد الخفية**" لا تدير لعبة اقتصادية تلقائية او عفوية. ان طبيعة النظام العالمي وبنيته تعتمد على بنى تدخل سلطوي خارجي تعمل على المستوى العالمي مثل مجلس ادارة جماعة G7 ومعايير اعادة الهيكلة البنيوية التي يفرضها كل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، والتي (اي المعايير) لا تترك هامشاً واسعاً لسيادة الدول وحريتها في ادارة اقتصاداتها. وهكذا، فإننا امام مشهد يتجلّى فيه الصراع بين المنظرين لليبرالية المعولمة من جهة، ومقولات **بالكوفتس وفرح** حول الحوار من اجل رخاء الشعوب، والشراكة احتراماً للكرامة الانسانية.

انطلاقاً من هذه الحيثيات التي دبجتها المدرسة الواقعية للعلاقات الدولية، ظننت نفسي بصدد قراءة كتاب طوباوي مدبج بالامنيات والمواعظ حول العالم المرتجى على قواعد "**سوف**" و "**لعل**"، **ونرجو...** الخ لكنني، وبعد قراءتي للكتاب، خرجت بانطباع ان **باكوفتس وفرح** وضعا بين يدي الانسانية كتاباً سكنته الحجج ودلالات المعاني ومتطلبات الشراكة وآليات الحوار وشروط السلام. "**فبعد سنوات من البحث والتأمل والمناقشات**"، يقول باكوفتس وفرح، "**وصلنا الى خلاصة مفادها ان طريق الحوار والشراكة هو السبيل الوحيد لحماية الانسانية**". ومن يدري، قد يصبح العالم أمة واحدة، لكن قبل ذلك على الشعوب ان تستكشف قضاياها المشتركة وتعمل لحلها انطلاقاً من ان الاخطار تطال الجميع وعلى الجميع ان يتنادى لمعالجتها على قواعد الشراكة والحوار.

اما الشراكة فهي الشكل الأسمى للتفاعل بين شعوب متساوية في القيم. واما الحوار فهو الاطار الحضاري لتنظيم الاختلاف وتضييق فجوة الخلاف، وصولاً الى وضع آليات تشرك الجميع دونما استثناء، وتتفهّم هواجس الجميع بعيداً عن القوة والتسلط والاملاء. فالدول التي تعتد بقوتها العسكرية غير قادرة على مكافحة الاوبئة او الحفاظ على البيئة او الاهتمام بقضايا الشباب والمرأة والطفل واصحاب التحديات الجسدية.

واذا كان للشراكة شروطها، فللحوار ايضاً قضاياه. فالشراكة تتطلّب:

1. الاعتراف بالمصالح المشتركة
2. الاعتراف بالحوار كشرط مسبق للتطوّر
3. الاعتراف بالمساواة.

اما قضايا الحوار فهي عديدة نذكر منها: البيئة، الديموغرافيا، التكنولوجيا، والمسائل الثقافية والاجتماعية. اما من جهة آليات الحوار، التي يطرحها المؤلفان، فلم تخرج هي الاخرى عن المألوف، ولنقل التقليدي... ومن هذه الآليات نذكر: المؤتمرات الدولية، الامم المتحدة، المنظمات الاقليمية، وأليات الدعم المالي. اما الجديد الذي يطرحه الكتاب فيكمن في الدعوة الى مأسسة آليات استراتيجية للحوار وللشراكة يأخذ بعين الاعتبار قضايا البيئة، طرق الانتاج والاستهلاك، ديناميكية التكاثر السكاني، وتشكيل نموذج جديد للانتاج في مرحلة ما بعد الثورة التكنولوجية؛ وكل ذلك عل قاعدتي الشراكة والحوار في عالم متعدد.

وللوصول الى كل ذلك يعترف المؤلفان بالآثار السلبية والمدمرة لتيار العولمة. فهناك عشرون في المئة من سكان الارض فقط من الذين سوف يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش برغد وسلام، على حساب ثمانين في المئة الخائفين من الحاجة الى التبرعات وهبات الجمعيات الخيرية وفتات موائد الاغنياء. ويبقى السؤال حول الجهة المخولة بالتدخل لحماية المكتسبات الاجتماعية التي الفئة العاملة، وتأمين فرص العمل للقادرين. وماذا عن الضغوط التي تمارسها المؤسسات المالية على دول الجنوب وحكوماتها لخفض الضرائب على الثروة والاستثمارات وخصخصة كل الخدمات المالية وخفض الانفاق الحكومي على الخدمات والرعاية الاجتماعية.

انني اوافق المؤلفان في الحاجة الى بلورة اخلاق عالمية جديدة تعترف بالتنوّع والتعايش وحماية الثقافة المحلية التي يسميها الكاتبان بالحضارة المحلية، التي تنظر الى العالم من خلال مركزيتها الاثنية (Ethnocentrism)، التي اثبتت فشلها في كل محاولاتها لتشكيل عالم بحسب نموذجها. وهنا اقصد تحديداً طريقة العيش الاميركية (American Way of Life) التي تتضمّن معايير للحكم على المستوى الحضاري لشعوب الارض قاطبة، والتي لم تجلب للإنسانية سوى الآلآم والويلات.

لا شك ان هناك نزوع عالمي لحل المشاكل الدولية بالطرق السلمية. ولكنني لا اوافق المؤلفان ان من يميّز القرن الواحد والعشرين هو ابتعاده عن التصادم بين الدول والحضارات الى شراكة وحوار لمعالجة المشاكل الدولية. وفي رأيي ان بداية التسعينات من القرن الماضي شهدت بداية نوع جديد من الهمجية الاقتصادية والعسكرية طالت بلداناً وشعوباً باسم النظام العالمي الجديد الذي تعرض لضربة قاسية عام 2008 عندما انهارت مصارف هزت الاقتصاد الاميركي في الصميم. وهذا الحدث دفع بالدكتور نسيم طالب الى تسميته بحدث "**البجعة السوداء" (Black Swan**) الخارج عن كل التوقعات، وله تأثير كبير، وبمفعول رجعي.

هذا يعني ان التجربة التاريخية التي شهدت خمسة انواع من التفاعل (الفعل وردة الفعل بحسب تونبي) لا تسير في خط بياني، لأن الشعوب لم تنتقل بعد من حالة النزاع المسلّح الى حالات متتابعة من التصادم والتعارض والحوار والتعايش والشراكة. نعم، لا بد من الاعتراف بوجود اتجاهات عالمية بارزة لنزع الاسلحة النووية، لتضامن عالمي من اجل حماية البيئة الطبيعية، ولدفع مسيرة حقوق الانسان، لتطوير مفهوم الامن ليشمل الامن الجماعي، ولإنتشار مصطلح التنمية البشرية المستديمة، لكن، كل هذا لا يكفي، ولا يفي بالغرض. والا، كيف نلحظ تفسيراً للظاهر التالية:

1. انه في اللحظة التي يسير العالم اكثر من اي حقبة سابقة نحو الاندماج ووحدة المصير، يبدو هذا العالم اكثر انفراطاً وتصدعاً مما كان عليه في اي وقت مضى.
2. في الوقت الذي لا تكف اجهزة الاعلام والمسؤولين عن التذكير بضرورة تجاوز الحدود السياسية وتكوين السوق العالمية الجبارة، لم يحصل ان كانت الحدود مغلقة تماماً امام تنقل الاشخاص بين الشمال والجنوب كما هي عليه الآن.
3. في الوقت الذي يشهد المجتمع الدولي اكبر طفرة في تقدمه التقني، تتسع اليوم رقعة المناطق المحتاجة التي يسكنها الفقر وتهددها المجاعة.
4. في الوقت الذي يخلق عصر المعلومات وهم الدخول في عصر الرأسمالية، أي عصر التقدّم المضمون لجميع سكان العالم، لم يكن النظام العالمي الجديد يتسم في اي مرحلة سابقة من تاريخه بانعدام الامن والاضطراب وعدم التوازن والحيرة والقلق والخراب السياسي والاخلاقي كما يتسم به اليوم.
5. في الوقت الذي سمحت وسائل الاعلام التي فجرتها ثورة الاتصالات لجميع سكان المعمورة بالتواصل المادي عبر الحدود، يكاد التواصل الانساني والروحي ينعدم تماماً ويخلي مكانه لمختلف اشكال التعالي والانطواء على الذات.

كل ذلك لا يقلل اطلاقاً من أهمية الصرخة التي اطلقها **يوري باكوفتس وسهيل فرح** من اجل السلام العالمي ورفاهية الانسان. فهذا الكتاب الموسوعي كتب لخير الانسان في هوياته المتعددة، أكانت محلية، أم عالمية، أم كونية. انه كتاب يحاول مؤلفيه ان يجعلا من المستقبل فكرة تفاؤلية حقاً. الى ذلك، ان النموذج الروسي في التعايش بين اناس متعددي الاديان والقوميات القائم على قواعد الحوار والاحترام والاعتراف بالتنوّع وتنظيم الحق في الاختلاف، لا يزال ماثلاً امامنا. فشكراً لروسيا الاتحادية على تمسكها بالقانون الدولي في وجه الهجمة البربرية التي تحاول القضاء على كل تنوّع في مشرقنا العربي.

والشكر لروسيا القيصرية التي انشأت **المدارس الموسكوبية** في بلداتنا العكارية، ولولاها لما كان **د. سهيل فرح** على ما هو عليه من سعة علم ومعرفة ودراية وحس انساني رفيع.

1. ان مسيرتكم الاكاديمية تشكّل نبراساً يحتذى لأجيال لم تولد بعد.
2. ان نضالكم الدؤوب من اجل الانسان مشهود له بين اترابك وعارفيك.
3. ان صدقكم في التعاطي مع المعطى العلمي دليل على امانتكم على القليل وائتمانكم على الكثير.
4. انكم في طبعتكم الاخيرة هذه تبدون كشمعة مضيئة على ضفاف زمن رديء
5. وبين **وسامي الابداع والتميّز من الجامعة اللبنانية ووسام بوشكين** انتم بحق وبفعل الامر اصبحتم سفيراً لروسيا الاتحادية في المشرق او سفيراً للبنان الى **العالم عبر البوابة الروسية**
6. **د. سهيل فرح** لم يختر العالم الذي ولد فيه، ولكنه دون ادنى شك ادرك واجبه الانساني في العمل على تغييره نحو الافضل.

فشكراً للمركز الثقافي الروسي في لبنان والبيت اللبناني الروسي على اتاحتهما الفرصة لي لأتناول هذا الكتاب الذي يجب ان يدرس في الجامعات كافة بهدف خلق دينامية جديدة تعنى بكل ما هو جميل في هذا العالم.